الطريق والرفيق

«أَيْضًا إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي» (مز ٢٣: ٤)

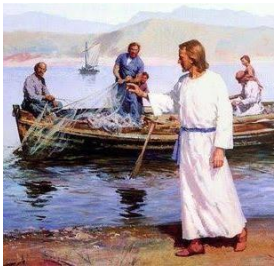

المسيح هو الطريق :

عندما يفكّر الإنسان في السير نحو هدفٍ ما، فمن اللازم له أن يكون مدركًا لأمرين هامين وهما: الطريق الذي يسير فيه، والمرافق أو المرشِد في هذا الطريق. والإنسان الروحي الذي وضعَ يده على المحراث، وحدَّد هدفه صوب أورشليم السمائية، لابد وأن يكون قد أدركَ أهمية هذين الأمرين، ووضحت له الرؤية والقرار في كلا الأمرين.

فعندما تكلَّم يسوع مع تلاميذه، وحدَّثهم عن المكان المزمع أن يذهب إليه عند الآب ليُعدَّ لهم منازل، سأل توما الرسول معلّمه بقوله: «يَا سَيِّدُ، لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ، فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ ؟»، فقال له يسوع: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٥،٦). والإجابة هنا واضحة عن الطريق، وهي أن المسيح نفسه هو الطريق، لأن ليس بأحدٍ غيره الخلاص، ولا يقدِر أحدٌ أن يأتي إلى الآب إلَّا به، وهو الذي به ومنه وله كل الأشياء، بل وكل مقدَّرات حياتنا، وأكثر من ذلك،لأنه حقَّق بتجسده الوحدة بيننا وبين الآب. فهو واحد مع الآب وفي نفس الوقت متحد بنا، وبذلك صار مثل "حلقة وصل" بين البشرية والله.

وهكذا يتضح لنا، أن التحرك نحو الآب ونحو الميراث السمائي الذي ننشده، إنما يكون مع المسيح نفسه، وعبر الطريق الذي كرَّسه لنا بدمه، وبالإيمان به والتسليم التام له، بل والاتحاد الكامل به، من خلال شركة الجسد والدم الأقدسين.

ولكن ماذا عن رفيق الطريق؟

يؤكّد لنا الكتاب المقدس أهمية الرفيق في رحلة الحياة ومسيرتها، ويدعم ضرورة وجوده ومعرفته والالتصاق به، لأن في ذلك الأمر أمانٌ وضمانٌ للوصول، وحمايةٌ لنا من

أخطار الطريق ومصاعبه، وتفاديًا لسقطاتٍ ومعاثِرَ كثيرة، ربما تواجهُنا بسبب اعتمادنا على أنفسنا في السير في الطريق بلا رفيق، أو بسبب محاربات أعدائنا وشراستهم – سواء الظاهرين منهم أو الخفيين – المتربِّصين بنا، مثلما يحذِّرنا آباؤنا القديسون منهم دائمًا.

ويعرِض لنا الكتاب المقدس مثالين واضحين لشخصيتين في التاريخ المقدس، تباينت مسيرتهما، من حيث بعض المعايير الهامة في الحياة، مثل: رفيق الطريق، وهدف الطريق والمسيرة، وأخيرًا الطموح والاختيار. أمَّا هذان الرجلان فهما: لوط، وابراهيم.

أولاً: من حيث: رفيق المسيرة (رفيق الطريق):

١ - لوط:

يحدِّثنا الوحي الإلهي عن الرفيق الذي كان مع لوط بالقول: «وَلُوطٌ السَّائِرُ مَعَ أَبْرَامَ...» (تك ١٣: ٥)، بينما يعبِّر عن رفيق الطريق لآخرين، مثل أخنوخ و نوح، بتعبير آخر، إذ يقول: «وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ» (تك ٥: ٢٤)، وعن نوح يقول الوحي: «... كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًّا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ» (تك ٦: ٩).

ففي مسيرة لوط، كان الرفيق الأول له إنسانًا، ومع كون هذا الإنسان بارًّا وكاملًا أمام الله، مثل إبراهيم، إلَّا إنه لا يمكن أن يكون بديلًا لله، لأنه مكتوبٌ: ملعونٌ كل من يتَّكل على ذراع بشرٍ، ويتهاون في السير مع الله (انظر: إر ١٧:٥). ويستحيل على أي شخصٍ أو شيء أو قوة أو مال، أن تعوِّض أو تُغني الإنسان عن وجود الله نفسه، فالله كفيل أن يحقِّق سلامة الإنسان ونجاحه ويُكمِّل شِبَعه وفرحَه الكامل، بل هو وحده من يضمن الحياة الآمنة وإكمال مسيرة حياة الإنسان حتى النهاية، وذلك حسب قول المرنِّم: «اَلرَّبُّ رَاعِيَّ فَلاَ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ. فِي مَرَاعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُنِي. إِلَى مِيَاهِ الرَّاحَةِ يُورِدُنِي. يَرُدُّ نَفْسِي يَهْدِينِي إِلَى سُبُلِ الْبِرِّ مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ» (مز ٢٣: ١ -٣)، وعن بني اسرائيل يقول الكتاب: «الرَّبَّ إِلهَكُمْ سَائِرٌ مَعَكُمْ» (تث ٢٠: ٤)، وأيضًا: «أَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا» (٢كو٦: ١٦). وكذلك: «وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ» (خر ١٣: ٢١)، وهكذا صار الله نورًا لكل من يسير معه، فلا يعثر في الطريق، بل يكون له نور الحياة: «أَسِيرَ قُدَّامَ اللهِ فِي نُورِ» (مز ٥٦: ١٣).

فمسيرة لوط، كما هو واضحٌ، قد أغفلت وجود الله والاتكال عليه، ومرافقته في طريق الغُربة، واستبدلت هذه الرفقة الإلهية برفقة إنسان، لذلك خابت مسيرته، وضرب نفسه بأوجاعٍ كثيرة.

٢ - إبراهيم:

ولكن على عكس ذلك، سلك إبراهيم كما سلك من قبله أخنوخ ونوح، فقد جعل الله رفيقًا لمسيرته، يتقدمه في كل أمرٍ، ويتبارك بعشرته، ويستضيء بنور معرفته وإرشاده حسب قول داود المرنِّم: «جَعَلْتُ الرَّبَّ أَمَامِي فِي كُلِّ حِينٍ، لأَنَّهُ عَنْ يَمِينِي فَلاَ أَتَزَعْزَعُ (مز ١٦: ٨). ودعاه الرب "إبراهيم خليلي" وصار صديقًا له، حتى إن الوحي الإلهي يقول عن ذلك: «... هَلْ أُخْفِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ» (تك ١٨: ١٧)، لقد اختار إبراهيم الرفيق والصديق الحقيقي والصحيح، القادر أن يهبه السلام والأمان والفرح والبركة، حتى إنه قد أنجَزَ له أعظم المواعيد: «بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ» (تك ٢١: ١٢) وذلك بعد أن شاخ وشارف على الموت، لأن الله أمين وصادق ورفيق ومعينٌ في الضيق. وهكذا أيضًا على مثال إبراهيم، اختارت مريم أخت لعازر النصيب الصالح الذي لن يُنزَع منها.

لقد نجح إبراهيم، ليس فقط لأنه سلك بمشورة الرب وهدايته في مسيرة حياته، وذلك كقول المزمور: «طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ فِي مَشُورَةِ الأَشْرَارِ ... لكِنْ فِي نَامُوسِ الرَّبِّ مَسَرَّتُهُ وَفِي نَامُوسِهِ يَلْهَجُ نَهَارًا وَلَيْلًا، فَيَكُونُ كَشَجَرَةٍ مَغْرُوسَةٍ عِنْدَ مَجَارِي الْمِيَاهِ، الَّتِي تُعْطِي ثَمَرَهَا فِي أَوَانِهِ» (مز ١: ١ -٣)، بل نجح بالأكثر لأنه جعل الربَّ أمامه، ورفيقًا له كل الطريق، فتبارَك به وصار هو نفسه بركة لآخرين، حسب قول الكتاب: «إِنَّ الرَّبَّ الَّذِي سِرْتُ أَمَامَهُ يُرْسِلُ مَلاَكَهُ مَعَكَ وَيُنْجِحُ طَرِيقَكَ» (تك٢٤: ٤٠).

ثانيًا : من حيث: هدف المسيرة (هدف الطريق) :

١ - لوط:

قيل عن لوط إنه رفع عينيه ونظر، حينئذٍ تطلَّع واشتهى، لأنه نظر الأرض (سدوم وعمورة) أرض الشر والخطية، فرآها كجنة الله كأرض مصر (تك ١٣: ١٠)، فحصدَ خرابًا ودمارًا وحرقًا وخسر كل شيء. لقد نظر واختار حسب الجسد، فحصد موتًا وحزنًا، وهكذا كل من وُلِد من الجسد ونظر بعينيِّ الجسد وإرادته، وبمفهوم العالم وأطماعه؛ فلن يجني سوى التراب والألم. وقديمًا نظرت حواء ثم آدم إلى الثمرة المحرَّمة واشتهياها، فسقطا كليهما، وجلبا على نفسيهما العار والموت. لأن كل ما في العالم هو شهوة العيون، وشهوة الجسد، وتعظُّم المعيشة، وهذه كلها ليست من الله. وعندما يشغلنا العالم عن هدف مسيرتنا وغاية

دعوتنا، فلا بد أننا سوف نتوه ونخسر ونسقط ونحزن، لأن الحاجة هي إلى واحد.

لوط كان بارًّا، وهذا أمرٌ نسبي، فقد كان ذلك بالنسبة لأهل سدوم وعمورة الأشرار، ولكن حينما ضاع منه الهدف واختل نظره وتشوشت رؤيته، اكتوى هو أيضًا بشرِّهم بسبب معاشرته لهم، وسكناه في وسطهم- حسب اختياره- ففقد كل شيء بسبب وقوفه في مجمع الأشرار والمستهزئين، كما يقول المزمور.

٢ - إبراهيم:

أمَّا إبراهيم فقد كان ينظر إلى ما لا يُرى بعين الإيمان، بثقة كاملة في الرب الذي دعاه، حتى يخرج من أرضه وعشيرته، إلى أرضٍ لا يعلمها لكي يرثَها، وبنفس هذه الرؤية الإيمانية الواضحة، أبصر عن بُعد يوم الخلاص الآتي، فرأى وآمن وفرح. إبراهيم لم يرفع عينيه لينظر، لأنه كان شبعانًا بإلهه، ولا احتاج إلى شيء أو اختيار آخر غيره. لذلك أراه الرب بنفسه كل الأرض، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، واختارها له ميراثًا، فالله هو الذي نظرَ واختار، أمَّا إبراهيم، فكان فرِحًا بالرب، واعتبر أن الله نفسه هو ميراثه الحقيقي، لذلك أعطاه الرب ما لم يطلبه، ووهبه أرض الموعد له ولنسله من بعده، وهذا هو ما يجب علينا فعله دائمًا، كقول الرب يسوع: «لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلًا مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ» (مت ٦: ٣٣).

ثالثًا: من حيث:الاختيار الروحي:

١ - لوط:

يذكر لنا الكتاب المقدس أن لوطًا لم يُعطِ الرب حقه في أي اختيار في حياته، بل كان هو القائم بهذا الأمر بنفسه دائمًا، لذلك كانت المعاناة هي ثمرة كل اختياراته، فالمنظور الذي كان يملكه لوط في الاختيار، كان منظورًا جسدانيًّا زمنيًّا، تحكمه رؤية العينين والميول الجسدية، ويفتقد كل رؤية إيمانية أو شِبع روحي، أو اكتفاء بالرب كنصيب ورفيق وميراث له. فكما اختار لنفسه الزوجة، اختار الأرضَ المخصِبة، واختار الأصهار وغيرهم، فهو لم يدعَ الله يختار له شيئًا، لذلك حينما تكلَّم مع أزواج بناته وأصهاره حتى يهربوا معه من حريق سدوم وعمورة، كان كمازحٍ بينهم، وناله منهم هُزءًا وتحقيرًا كثيرين، إضافة لما كان يلقاه ويتعذَّب بسببه من سلوك وشرور أهل هاتَين المدينتَين (٢بط ٢: ٨)، وأخيرًا ما

حصده في النهاية، بفقده كل شيء، حتى امرأته التي صارت عامود ملح، وبالكاد نجا هو وابنتاه فقط من الدمار.

كل ذلك كان بسبب إنه لم يترك لله دور الاختيار، فيما يخصُّ مسيرة حياته واحتياجاته، لضعف إيمانه.

٢ - إبراهيم:

ولكن إبراهيم، الذي عاش بروح الإيمان، فقد أدركَ أنه غريب ونزيل على هذه الأرض (عب ١١: ١٣)، ورغم إنه عاش في أرض الموعد الأرضية، إلَّا إنه عاش بروح الاغتراب، تاركًا كل أمور حياته بيد الله الذي يعوله منذ دعوته الأولى، وتطلَّع إلى الأرض الجديدة والسماء الجديدة، التي يحيا فيها مع الله إلى الأبد، لذلك، ورغم كل غناه الذي وهبه له الله، فقد عاش غريبًا في خيمة (عب ١١: ٩)، منتظرًا على الرجاء أن يرث الميراث السمائي العتيد الذي لا يفنى، وكان لسان حاله يهتف دائمًا: «الرَّبُّ نَصِيبُ قِسْمَتِي وَكَأْسِي» (مز ١٦: ٥).

فَعيْنُ الإيمان تجعلنا نتجاوز كل الأمور الأرضية، وكل المشاحنات على ميراث الأرض وخيراتها المؤقَّتة، ونتغاضى وننبذ كل عداوة أو عائق يحول بيننا وبين ميراث الحياة الأبدية، وعين الإيمان تجعلنا، كإبراهيم، نصبِر ونحتمل ونشكر ونترك ونبارك، من أجل الوعد الصادق لنا بالعشرة والسكنى مع الله الحيِّ، تاركين له الاختيار في كل أمور حياتنا، غير مهتمين أن نستوفي خيراتنا على الأرض، بل يكفينا أن يرافقنا في مسيرة حياتنا كل الأيام حتى نصل إلى الميناء، ونلتقي وجه الحبيب بسلام.

صدر حديثًا

كتاب

أمجاد الأجداد

قصص مستوحاة من العهد القديم

إصدار دار مجلة مرقس